الدولة الصليحية

العهد الأول

الملك على الصليحى

كانت اليمن فى القرنين الرابع والخامس الهجريين فى حالة من التدهور والتفكك . ففى خلال تلك المدة استولى الموالى على الأقاليم اليمنية . واستبدوا بالحكم . وعاثوا فساداً وظلماً . وبالرغم من أن « الحسين بن سلامة » تمكن فى مدة ولايته من الحفاظ على دولة بنى زياد ، فإن استبداد الموالى الحبشيين بالحكم مكنهم من تأسيس الدولة النجاحية فى زبيد سنة ٤١٢ هـ على أنقاض دولة بنى زياد ، فكانت لها تهامة وزبيد . وكان استيلاؤهم على تلك الأمكنة من الأسباب التى حفزت العرب إلى الانتقاض وعدم الخضوع لدولة الأحباش ، فكان من جراء ذلك أن تقطعت أوصال البلاد بعد موت الحسين بن سلامة . وأصبحت كل منطقة تخضع لنفوذ أمير ، وعمت الفوضى المناطق ، وأعلن العصيان فى القلاع والحصون . والاستقلال فى المناطق والأقاليم . فكان مخلاف

جعفر يضم جبلة . وإب . والعدين . والمذيخرة . وذى سفال ؛ ومخلاف المعافر يضم تعز وجبا وغيرهما . ومخلاف الجند وحصن السمدان لآل الكرندى . وكانت لهم مكارم ومغافر وسلطنة ظاهرة . أما عدن وأبين ولحج وحضر موت والشحر فقد استولى عليها بنو معن سنة ٤١٢ هـ . وتغلب أسعد بن وائل على مخلاف وحاظة ومن مدنه شاطح . وامتلك بنو عبدالواحد مخلاف يربوع . وأهم مدنه الغمد وبرع وحصن مسار . واستولى بنو أصبح على حصون حب ؛ والشحر والسحول . ثم استولى على حصن وصاب ومخاليفها قوم من بكيل ثم من همدان .

من هذا نرى أن اليمن لم تكن فيها وحدة سياسية تجمع شملها تحت لواء واحد ، بل كانت إمارات صغيرة متفرقة يأكل القوى منها الضعيف ، أو بلغة أصح قل : إن السلطة كانت موزعة بين الأمراء والزعماء المتباغضين المتنافرين ، وجميعهم لم يكن يربطهم ببغداد إلا رباط إقامة الخطبة للخليفة العباسى ، وضرب السكة باسمه ، وإعلان الولاء له ولو بالظاهر .

هذا ... ومن الجدير بالذكر أنه من سنة ٤٠٥ إلى سنة ٤٤٨ هـ عم الخراب صنعاء وغيرها من مدن وبلدان اليمن بسبب الخلافات والنزاع والظلم وفساد الأحوال ، وتوالى على

العاصمة « صنعاء » الدمار وقل الخير. واضمحلت المدينة حتى قيل إن دورها أصبح عددها ألفاً بعد أن كان مائة ألف .

فى هذا الجو المكفهر الحالك المضطرب ، وفى تلك الأحوال السياسية المتقلبة ظهر « على بن محمد الصليحى » رأس الأسرة الصليحية التى تنتسب إلى قبيلة الأصلوح من بلاد حراز . وكان علىّ كما وصفه ابن الجوزى فى كتابه « مرآة الزمان » « شاباً أشقر اللحية . أزرق العينين ، وليس فى اليمن . فى ذلك الوقت . من يماثله فى ذلك » . وكان والده القاضى محمد الصليحى مسلماً سنياً شافعى المذهب حسن السيرة مطاعاً فى أهله وجماعته . لا يخرجون عن أمره ولا يعصون قوله . أما المؤرخ عُمارة فقال : كان أهل حراز أربعين ألفاً يدينون له بالطاعة .

نشأ علىّ نشأة طيبة . فى بيئة عربية عريقة ، لها تقاليدها فى الأخلاق الفاضلة والعادات الطيبة السمحة . وقد أورد عمارة فى تاريخه أنه قد ظهرت عليه مخايل النجابة ، ودلائل الفضل والعزة وطموح النفس . ويروى أنه أقام يحج بالناس على طريق السراة والطائف خمسة عشر عاماً . وكان الناس فى أول ظهوره يقولون له : قد بلغنا أنك ستملك اليمن بأسره ويكون لك شأن ودولة » .

إن أولى فتوحات على الصليحى كانت استيلاءه على مدينة زبيد ، وفى تلك الفترة أحب الأمير الشاب ابنة عمه السيدة الحرة الأميرة أسماء بنت شهاب الصليحية ، وقد أورد المؤرخ عمارة فى تاريخه قصة زواجها فقال :

كان على باب زبيد من داخل السور دار رجل من الحبشة يقال له « فرج السحرتى » وكان من أهل الفضل والأخلاق الرفيعة والصدقات والمعروف ، فخرج ذات ليلة فمر برجل يقرأ القرآن . فسأله عن العشاء ، فأنشد قول الشاعر المتنبى :

من علم الأسودَ المخصىَّ مكرمة أعمامه البيض أم أخواله الصيد؟!

فأخذه الحبشى وطلع به إلى أعلى مكان فى داره ، وأكرم مثواه ، واستخبره عن سبب قدومه إلى تهامة ، فقال على الصليحى : إن لى عمًّا يقال له شهاب ، وله ابنة يقال لها أسماء ، قليلة النظير فى الجمال ، معدومة المثل فى العقل والأدب . وقد خطبتها إليه ، فاشتط على فى مهرها ، وأمها تقول : لا تزوجها إلا بعض ملوك همدان بصنعاء ، أو أمراء بنى الكرندى ، بمخلاف جعفر ، وقد استاموا على من المال مبلغاً لا قدرة لى عليه ، وأنا متوجه إما إلى بنى معن بعدن ، وإما إلى بنى الكرندى بالمعافرة .

وهنا يقول عمارة : إن السحرتى دفع له مالا جزيلا أضعاف ما أدّى . وجهز العروسين بجهاز يحتفل به الملوك لعقائلهم ؛ وأعاده إلى عمه حيث زوجه أسماء .

وذكر الأزدى فى كتابه الدول المتقطعة قوله : وكانت أسماء من أعيان النساء . وكان الصليحى يثق بها ثقة عمياء لكمالها ؛ وقد كان يوكل إليها أمر تدبير الدولة ، و لم يخالف فى أغلب أمورها . ويجلها إجلالاً عظيما . وكانت إذا حضرت مجلساً لا تستر وجهها عن الحاضرين . وفوق كل هذا كانت من حرائر النساء .

وزاد على قوله : وكانت من الكرم والسؤدد . تمنح الجوائز السنية الجزيلة للشعراء . والصلات الواسعة فى سبيل الله تعالى وفى سبيل الخير والمروءة . بحيث يمدح أولادها وإخوتها وبنو عمها بمفاخرها .

ونعود إلى ما قبل هذا لنقول : إنه لما انتقلت رئاسة الدعوة الإسماعيلية فى اليمن إلى الداعى سليمان بن عبد الله الزواحى شرع يلاطف القاضى محمد الصليحى والد على ، فكان يذهب إليه كثيراً لرئاسته وسؤدده . وصلاحه وعلمه . وكان سليمان كلما ذهب إلى القاضى . ورأى ولده عليًّا . لاحظ عليه مخايل النجـــابة والذكاء . ودلائل الفضل

والشجاعة . وهو فى أوان الاستجابة للدعوة الإسماعيلية ؛ وكان يومئذ دون البلوغ ؛ فأخذ الداعى يتصل به . ويطلعه على ما عنده من أخبار وآمال ومشروعات كبار . حتى استمالة ؛ وغرس فى قلبه ولبه العلوم والآداب ومحبة المبادئ الإسماعيلية .

ولما اطمأن الزواحى لرسوخ تعاليمه فى نفس تلميذه على جعله خليفته فى الدعوة بعد أن وافق الإمام الفاطمى المستنصر بالله على ذلك . وبهذا تمكنت الدعوة الإسماعيلية فى اليمن من إحراز نصر باهر فى مجال الدعاية بأن ضمت إلى صفوفها شابًّا من خيرة شباب اليمن ، ومن أشدهم غيرة وحماسة .

أجل ... إن الداعى الإسماعيلى سليمان الزواحى تمكن بما أوتى من قدرة وسعة علم ، ولباقة فائقة ، وطلاوة فى الحديث ، من إدخال الشاب على الصليحى فى الدعوة . وإقناعه بضرورة الحرص عليها ؛ كما نعتقد أنه لم يلاق صعوبة فى جذبه إليه بالنظر لما أبداه على من رغبة صادقة فى الاستمرار والتقرب من أستاذه المفيد ، وكل هذا بفضل فطنته وذكائه الذى ظهر فى سن مبكرة ، مضافاً إلى ذلك أن عزم على واجتهاده وحرصه على ألا يفلت منه هذا الأمر جعله ينكب على دراسة الدعوة التى زوده بها الزواحى . وآلت إليه بعد موته . وكان قد أوصى بها مع مبلغ كبير من المال تركه له . وكل هذا

يدل دلالة واضحة على نضج فكرة الدعوة الإسماعيلية وأصولها وتعاليمها فى عقل هذا الشاب الذى قدر له فيما بعد أن يلعب دوراً هاماً فى تاريخ بلاده اليمن . ومما هو جدير بالانتباه أن ذكاء على الصليحى كان من أهم العوامل فى إنجاح مشاريعه ، ووصوله إلى مركز الزعامة . فلم يكد يبلغ الحلم حتى تضلع فى معارفه التى بلغ بها . وبالجد السعيد غاية الأمل البعيد ؛ فأصبح كما قال عمارة : عالماً فقيهاً فى الفلسفة ، مستبصراً فى علم التأويل ... وقد أدت معارفه إلى أن ينهج نهجاً جديداً ، وأن يسلك طريقاً تخالف طرائق من سبقه من الدعاة فى اليمن فى بث دعوته ونشر مذهبه . فاتخذ ميدان الحج حقلا لغرس مبادئه وتنميتها ، وصار يحج بالناس عن طريق السراة والطائف نحواً من خمس عشرة سنة . فسار ذكره فى البلاد على لسان الخاصة والعامة .

ومن الملاحظ أن هذه المدة الطويلة التى مرت بين موت الزواحى إلى قيام الصليحى بثورته فى مسار تقرب من خمسة عشر عاماً . فهى بلا شك كافية لصقل علىّ وإنماء معارفه وتجاربه . وتكوين جماعة تدين له بالطاعة والاحترام والإخلاص .

ولا يخفى أن طلاب السلطة يراعون دائماً جانب العامة .

فهم السواد الأعظم فى كل مجتمع يحسبون لهم كل حساب ؛ ويتقربون إليهم بما يرضيهم . ولما كان الدين هو جامعتهم الكبرى . ومن أكبر أسباب سعادتهم . تمسك الصليحى بالعقيدة الإسلامية وبالمثل العليا . ولم يكن يبوح بعقيدته الأصيلة إلا لمن يثق به ؛ ولم تكن دعوته فى أول الأمر للأمراء، وعلية القوم وأصحاب المصالح . لأنه كان يعلم تماماً أن هؤلاء سيحاربونه بأى حال من الأحوال . ولكنه اتصل بالعامة والمتحمسين منهم للدين . وهم طبقة الحجاج ؛ فكأنه دخل بدعوته فى هذا الميدان متشحاً ومتجملاً بالدين وبمحاسنه . وهو متحقق أنه لا بد من أن يستميل إليه أعواناً أوفياء ؛ ولو طال به الزمن . مادام متمسكاً بالدين . ولما كان الصليحى من طلاب السلطة المطلقة وجد أنه لا يمكنه أن يستغنى عن العامة . لأنهم السواد الأعظم فى الرعية . وبهم تجبى الأموال ؛ ومنهم يتألف الجيش . ومن استطاع كسب ثقتهم وجذب قلوبهم ملكوه . ولا يجتذب قلوب العامة فى تلك العصور مثل الدين . فإذا اجتمعت السياسة والدين تمت وسائط السلطة وخاصة فى محيط عرف عن عامة أهله شدة تمسكهم بأهداب الدين ومحافظتهم على التراث القديم .

أجل ... عرف على الصليحى هذا كله وعرف أنه

لابد له من التطلع إلى آماله من زاوية خاصة ؛ فدأب على تحقيق هذه الآمال بصبر وتؤده ؛ وهو يعلم أنها كفيلة بنجاحه ووصوله إلى تحقيق أغراضه . وجاء موسم الحج فى سنة ٤٣٨ هـ ؛ فكان بمثابة عهد جديد فى إنجاح حركة الصليحى ؛ حيث بايعه ستون رجلا من قبيلة همدان ؛ وعاهدوه على الطاعة والموت أو الظفر بقيام الدعوة . وعلم كل واحد منهم أنه جندى فى سبيلها يبيع نفسه بيع السماح عندما تأزف الساعة الرهيبة . وتضافرت القوى على نصرة الدعوة بالأنفس والمال ؛ ويعد كل هذا نصراً أكيداً للدعوة الإسماعيلية من غير شك ؛ وخاصة إذا عرفنا أن هؤلاء الذين بايعوه إنما كانوا فى عزة ومنعة من قبائلهم . وهذا لا يتعارض مع ما ذكرناه من اعتماد الصليحى على فئة العامة ؛ وبخاصة أن أكثرهم كانوا من قبيلة همدان القوية العزيزة الجانب التى بلغت شأواً بعيداً فى اليمن ؛ وهابتها جميع القبائل وحسبت لها حساباً ؛ وقد كان هذا الانضمام عاملا كبيراً ومشجعاً لمن كان متردداً من المستجيبين . وباعثاً للكثيرين من القبائل الأخرى على الانضواء تحت لواء الدعوة الإسماعيلية .

وهنا نستطيع أن نقول : إن على الصليحى بعد أن وصل إلى هذه النتيجة ؛ وبعد إحرازه هذا النصر الأكيد . تمكن من تكوين جماعة مخلصة وإن تكن صغيرة . وقد

أصبحت فيما بعد نواة لقوة كبيرة . فكان أول عمل قام به هو استيلاؤه على حصن مسار وتعميره وجعله مركزاً لدعوته وقاعدة لحروبه . ولكن هذا المشروع كان يقتضى الحيطة والاستعداد . ولهذا أخذ يستعد للثورة ويهيئ لها كل شيء . وساعدته الظروف إلى حد كبير . حتى كون جيشاً قوياً من بطون همدان ، وهو وأنصاره مقتنعون بصدق الوعد الذى بشروا به ؛ واستقر فى قلوبهم أن مواجهة الصعاب تقتضى الشجاعة والثقة بالله وبالإمام الذى وعدهم بالنصر الأكيد أينما توجهوا .

ولقد بذل الصليحى وأصحابه جهداً كبيراً لجمع الكلمة وتوحيد الهدف ؛ فتمكن بفضل ما أوتى من شخصية قوية نادرة أن يتغلب على هذه المشكلة بأن جعل أتباعه يعتقدون أنهم يحاربون لنصرة الإمام وإعلاء كلمة الله ؛ وليس لأمر من أمور الدنيا ؛ فكتب له ما تمنى من التوفيق . وكتب إلى إمامه بمصر الخليفة المستنصر بالله يطلعه على عزيمته وما قرره ، وأخذ رأى مستشاريه وأعوانه ؛ وعاهد أصحابه ، ومن صحت فى نفوسهم دعوته ، على الوفاء وتطبيق سنن العدالة . وتشاء الظروف أن تمهد له الأسباب فيعقد اتفاقاً مع الهمدانيين على الوصول إليه فى يوم معلوم .

وعندما شاع الخبر فى أرجاء اليمن بأنه يستعد للثورة والقتال : وأنه ينتظر مساعدات وأوامر الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله . ازدادت نقمة الأعداء على أهل دعوته وأتباعه . فوثب « ابن جَهوَر » صاحب لحاب فى حراز على الإسماعيليين الذين بناحيته . وأسر القاضى لمك بن مالك الحمادى وعدداً كبيراً منهم . فضاق الأمر على الصليحى وكان ينتظر أن يكون جواب الإمام الفاطمى المستنصر بالله موافقاً ومشجعاً . لأنه لا يعقل أن يعارض بحال من الأحوال أمراً يستهدف نشر دعوته وإعلاء كلمته ، وبخاصة أن ذلك لن يكلفه إلا الموافقة وتشجيع الطالبين على الاستمرار فى العمل ومباركتهم . ولكى يبرهن الصليحى على صحة حلمه أمام المستجيبين له لدعوته تفاءل بالنتيجة ، واستبشر بذلك ، وأظهر الفرح وقويت عزيمته . وبث هذه الروح فى قلوب أتباعه وجد فى الاستعداد لتنفيذ خطته . فأرسل إلى أهل دعوته وأنصاره أينما كانوا رسلا يحثهم على الوصول إليه . كما أخذ يبتاع العدة والعدد . وخفّ لمقابلته كبار أهل الدعوة فى نواحى حراز . وهم يستعدون لخوض المعركة المصيرية . ووافاه من أراضى يام من همدان . ومن نواحى صنعاء ، ومن أرض حمير ثلثمائة رجل عدا من جاءه من نواحى حراز . فلما صاروا

بحضرته أطلعهم على ما عقد عليه العزم . وطلب إليهم أن يوافوه فى يوم معلوم . وأخبرهم عن عزمه على عمارة مسار ، وإعلان دعوة الإمام الفاطمى المستنصر بالله . فوافقوا ، واستقر رأيهم على الجهاد . وأيقنوا بالظفر والغلبة . وجمعوا ما استطاعوا من العدة . وتواصوا ببذل النفوس والأموال فى طاعة الله ورسوله والإمام . وبدأ الأغنياء يرسلون الأموال إلى الصليحى لتمويل الثورة وشراء الأسلحة . ولما تمت الاستعدادات والتجهيزات أرسل أربعين رجلا من هوازن ، وأمرهم أن يسيروا إلى مسار وأن يلزموا ذروة الجبل . كما أمرهم أن ييمموا وجوههم شطر صعفان . بعد أن علم أن أهل مسار قد تأهبوا لقتاله وحصنوه من كل جهة . وقد علم بذلك الصليحى عن طريق بعض أعوانه الذين تسللوا إلى قمة مسار ، وعرفوا ما يجرى هنالك ، فعادوا وأخبروه . وهنا رسم خطته للاستيلاء على قمة هذا الجبل المنيع الذى يعد من المواقع الاستراتيجية ذات الأهمية الحربية فى اليمن .

وفى سنة ٤٣٩ هـ جد فى السير . وكان قصده احتلال الموقع المشار إليه . وعندما وصل إلى عُبرى سهام طمع أهل مسار فى محاربته فى هذا المكان ، ولكنهم لم يتمكنوا ، فاتجهوا إلى قمة الجبل ليعتصموا بها ، فوجدوا أن أهل هوازن

قد ملكوها . فاضطروا إلى الحرب . وصعد الصليحى وملك الجبل . ونشر على ذروته أعلام الإسماعيليين دون أن يشتبك مع أحد فى قتال . ولكن لم ينتصف ذلك اليوم حتى أحاط به عشرون ألف محارب جاءوا من مختلف الجهات وأنحاء البلاد لقتاله . وطلبوا إليه النزول . وهنا تجلت حكمته وعقله وبعد نظره بالأمور وبالسياسة . فقال لهم : إننى لم أقدم على هذا الأمر إلا لكى أحرس لكم الجبل خوفاً من أن تأتى قوة خارجية وتستولى عليه . والآن فإن شئتم نزلنا وتركناه . وإن شئتم كنا له الحراس الأمناء . فقنع الرجال المحاربون وفوضوه بالمحافظة عليه وانصرفوا عنه . وفى تلك الأثناء عادت رسله من مصر حاملين أوامر الإمام الفاطمى المستنصر بالله بإقامة الدعوة الإسماعيلية فى اليمن . فقرأ الكتاب على أتباعه . وأخذ نفوذه يزداد . وبدأت الأموال ترد إليه من جميع الجهات وهذا ما جعله يقوم بعمارة جبل مسار ويجعل له الدروب والبيوت .

ونورد هنا المنشور الذى أذاعه الصليحى على أهل حراز بعد استيلائه على جبل مسار :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله الذى أورى زناد الحق ، ورفع عماد الصدق ، بالدين أكمل بهم الحجة على الخلق ، وأنارهم ما بين الغرب والشرق . الهداة إلى الخير والأدلة . الدعاة إلى أشرف المنهاج والملة . خلفاء أنبيائه وأمنائه وأصفيائه . وسلالة رسله من لدن آدم عليه السلام . ووصل نظامهم . وأعلى مقامهم وفتق بالنور أيامهم . ونشر بالعدل أعلامهم . فهم أعلام الدين . والدعاة إلى الحق المبين . الشيعة الميامين ، والسلالة الطيبين . آل طه ويس .

وصلاته على من ختم به الرسالة ، وفتح بالأئمة من عقبه أبواب الدلالة ، سيدنا محمد النبى . وعلى أخيه ووصيه على . وعلى الأئمة من نسل الحسين الزكى . ورثة التنزيل وعلى وخزنة التأويل .

وأفضل صلاته وأنمى تحياته وبركاته على وارث علمهم ، والقائم من بعدهم ، بقية السلف وخيرة الخلف ، مولانا معد أبى تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه خلفه وسلفه .

أما بعد يا أهل حراز ! ألهمتكم الله رشدكم ، وجعل

الجنة قصدكم فلم أطلع إلى حصن مسار متجبراً باغياً ، ولا متكبراً على العباد عاتياً ، ولا أطلب الدنيا وحطامها ، ولا طالباً أمالك غوغاءها وطغامها . لأن لى بحمد الله ورعاً يحجزنى عما تطمح النفوس إليه ، ودِيناً أعتمد عليه .

وإنما قيامى بالحق الذى أمر الله عز وجل به ، والعدل الذى أنزله فى محكم كتابه ، أحكم فيه بحكم أوليائه ، وسنن أنبيائه وأدعو إلى حجته الذى فى أرضه ، والقائم بفرضه . لست من أهل البدع ، ولا من ذوى الزور والشنع الذين يعملون فى الدين بآرائهم ، ويحكمون بأهوائهم ؛ بل أنا متمسك بحبل الله المتين ، عامل بما شرع الله فى الدين ، وداع إلى أمير المؤمنين ، عليه صلوات رب العالمين لا أقول إلا سدداً ولا أكره فى الدين أحداً . فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما الله يريد ظلماً للعباد .

واعلموا ، يا أدل حراز ! أنى بكم رؤوف ، وعلى جماعتكم عطوف ، للذى يجب على من رعايتكم وحياطتكم ، ويلزمنى من عشرتكم وقرابتكم ، أعرف لذى الحق حقه ، ولا أظلم سابقاً سبقه ، وأنصف المظلوم وأقمع الظالم الغشوم ، وأبث فيكم العدل ، وأشملكم بالفضل . فاستديموا ذلك بالشكر ، ولا تصغوا إلى قول أهل الكفر ، الذين من بقايا أهل الكفر ،

فيحملوكم من ذلك على البغى والعدوان ، والخلاف والعصيان ، وكفر الإنعام والإحسان ، تستوجبوا بذلك تغيير الإنعام ، وتعجيل الانتقام . وكتابى هذا حجة عليكم ومعذرة إليكم . والسلام على من اتبع الهدى ، وتجنب أمور الردى .

والحمد لله على ما أعاد وأبدى ، وصلواته على من أرشد به من الضلالة وهدى ، سيدنا محمد النبى وآله الأئمة الشهداء ، وسلم تسليما . حسبنا الله ونعم الوكيل » .

* * *

مما لا ريب فيه أن ازدياد نفوذ الصليحى ، وانتشار أمره بهذه السرعة استفز جماعة من زعماء اليمن ، فأعلنوا خوفهم من عاقبة تلك الانتصارات التى يحرزها الصليحى فى كل يوم . وكان أن قام جعفر بن القاسم بن على العيانى صاحب صعدة فى جمع كبير من أصحابه ، وهاجم حصن الأخروج ، وقاتل أهله ، وكان عليه الحسين بن مهلهل من أصحاب الصليحى وجماعة من همدان وبنى شهاب ، وانتهز هذه الفرصة أيضاً جعفر بن العباس الشاورى صاحب مغارب اليمن الأعلى ، فقام على رأس جيش كثيف من حراز وكرار وغيرهما من أهل الشدة والبأس ، وقصد عبْرى أسفل جبل مسار . وأراد الصعود إليه ، فنزل أنصار الصليحى

يدافعون عن بقائهم ، وعن نصرة مبادئهم ؛ لأن الانتصار معناه البقاء لدولتهم الناشئة . أما الهزيمة فمعناها الفناء التام والقضاء المبرم .

ولما تكاثر القوم على جيش الصليحى ، خشى الهزيمة وما يترتب عليها من سوء العاقبة ، فنزل بنفسه ومن بقى معه من القوى الاحتياطية واستمد من الحرج قوة ، فشد بذلك عزم أتباعه ، وحمى وطيس القتال . وأخيراً ربح الجولة ؛ أما جيش ابن عباس فقد لاذ بالفرار مغلوباً على أمره ، ولكنه ما لبث أن رجع وثبت فى المجال طمعاً فى النصر فكان جزاؤه هذه المرة القتل هو ومن معه من الأتباع . وغنم الصليحى وأصحابه الكثير من السلاح والأمتعة والعدة ، فقوى بذلك مركزهم وزاد نفوذهم ، وارتفعت روحهم المعنوية ، وخافهم من كان يترقب من القبائل نتيجة هذه المعركة . وفى هذه الأثناء اضطر الشريف جعفر بن القاسم — أمام مقتل حليفه ابن العباس وهزيمة جيشه — أن يترك حصن الأخروج وينجو بنفسه ؛ وكانت هذه التجربة اختباراً لقوة الصليحيين وتعاونهم وتمسكهم بمبادئهم ؛ كما أن شخصية الصليحى وجلال قدره وحسن بلائه فى تأييد أمره أسكن النفوس الغاضبة ، فسار بالأمر قدماً ، واستولى على « حَضور »

وأخذ حصن « بتاح » وخاف أهل حراز النزال ؛ فقرروا الدخول فى طاعته إلا ابن جهور . فقد صمم على الاستمرار فى المكابرة . واعتصم بحصن لهاب . فاضطر الصليحى إلى تكليف القائد الإسماعيلى الكبير عامر بن سليمان الزواحى أن يصعد جبل شبام وبيت عناد ومعه جماعة من بنى قليد وهوازن وبنى الحجرى . ثم وصل أحمد بن المظفر الصليحى وجماعة من الحجازيين . وفيهم عباس بن الكرم ؛ فعمروا داراً فى قمة جبل شبام . كما عمروا جبل بيت عناد استعداداً لمقاومة ابن جهور .

وبعد أن تحصنوا فى هذه الناحية اتجه جيش الصليحى لمحاربة ابن جهور فى لهاب . فضيقوا عليه الحصار ؛ وفكوا أسر جماعة كبيرة من أصحابهم . ومنهم القاضى « لملك بن مالك الحمادى » . ولكن ابن جهور استمر فى عناده ؛ وتمكن من أن يؤثر على أتباعه . ويدفعهم إلى الاستمرار فى المقاومة ؛ ولما ضعف جيشه ، ورأى أن مصيره إلى الهلاك استعان « بنجاح » فى زُبيد ؛ وكانت علاقته مع الصليحى حسنة ؛ فتوسط بالصلح ؛ ولكن وساطته لم تثمر ، وكان أن تمادى ابن جهور فى بغيه . فاضطر الصليحى إلى محاصرة حصن زبار حتى سقط . وهنا رضخ ابن جهور وسلّم نفسه إليه

مكرهاً فى مسار ، فأنزله الصليحى فى ضيافته ، وأحسن إليه . ويدل تسامح الصليحى مع عدوه على نبله وعراقته وطيب محتده فقد كان المفروض والمنتظر أن يأمر بقتل ابن جهور الذى تسبب فى إقلاق راحة الصليحيين مدة من الزمن حتى استمات فى سبيل الوصول إلى النصر وتحريض الحانقين والناقمين عليهم — بالرغم من هذا كله وجد الصليحى أن المعاملة الحسنة أجدى وأنفع فى مثل هذه المواقف ، وآثر أن يكسب ثقة من بقى من أتباعه . وقد تحققت سياسته . فانقسمت منطقة لحاب فيما بينهم إلى فريقين : فريق انضم للصليحى ، وقدم إليه المساعدة المالية وقدرها ألف دينار ، وفريق استمر فى عداوته . مما جعل الصليحى يرد كيدهم إلى نحورهم ويجتذب إليه الفريقين أخيراً ؛ ولم يتوقف عند هذا الحد ، بل نزل إلى عبرى دعاس ، وعقد مؤتمراً من جميع أهل حراز ، حذرهم فيه من الخلاف عليه والشقاق ، وأعلن بدء قيام الدولة الإسماعيلية المنتظرة فى اليمن برئاسته ، وقد وعدهم بحسن السياسة وأنه لا يخالف الشرع ، كما أنه أمرهم أن يرفعوا إليه ما يكون من العمال من الحسن والقبيح ، حتى ينزل بهم من إنعامه وعقوبته بحسب أفعالهم .

وبدأ الصليحى حكمه على الأسس التى أعلنها وتقدم

فى تنفيذ سياسته المرسومة بخطى حازمة سريعة . وكان من ضمنها اتباع سياسة المهادنة إزاء أمراء اليمن وأصحاب الدويلات المجاورة . إذا نفعت هذه السياسة ؛ وإلا فليس أمامهم إلا الحرب وإخضاعهم بالقوة تحت راية حكومته ؛ ولما ملك الصليحى جبال حراز والمناطق المجاورة ؛ وخشى ملوك تهامة والجبل بأسه الشديد . وتدبيره الرشيد ؛ وتملكه الحصون والبلدان . وبخاصة حصون « حضور » وما جاورها ، بدأت التقولات والإشاعات تنتشر فى كل مكان ، وهنا كان لابد له من مهادنة أبى حاشد صاحب صنعاء ، كما هادن أباه يحيى بن إبراهيم الصحارى من قبل ، فلما توفى يحيى سنة ٤٤٠هـ أرسل الصليحى بعض أصحابه وبنى عمه إلى صنعاء لتعزيته فى أبيه والإحسان إليه . ولكن أبا حاشد عدّ تأدية مراسم التعزية ومحاولاته فى المهادنة تدخلا من الصليحى فى أموره فساءت العلاقة بينهما أخيراً مما أدى إلى قيام الحرب بين الطرفين . وقد انتهت بمقتل صاحب صنعاء واستيلاء الصليحى عليها . وقد رأى الناس من عدله وفضله وحسن سيرته ما ألف قلوبهم على محبته ؛ وجعل أهل النخوة والنجدة يقبلون الدخول فى طاعته .

هذا ... وقد عد الإمام الزيدى الناصر الديلمى بن الحسين

ابن محمد بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب — وكان قد وصل من الديلم إلى اليمن سنة ٤٣٧ هـ لإعلان المذهب الزيدى وانضمت إليه قبائل كثيرة فى صعدة . ومنها سار إلى صنعاء وملكها . فطرده يحيى بن أبى حاشد والشريف جعفر بن الإمام منصور العيانى . فعاد إلى ذى أبين وناصر هذا كان يعد من العلماء الأجلاء ، وله تفسير للقرآن فى أربعة مجلدات — عد الناصر أن استيلاء الصليحى على صنعاء يشكل تهديداً له ولغيره من زعماء اليمن ، فكان أن اتصل « بنجاح » صاحب تهامة وطلب منه إخراج الصليحى من صنعاء ، وتملكها . وهذه البوادر التى ظهرت من الناصر كانت مدعاة لغضب الصليحى . فسير إليه جيشاً حاربه ثم قتله أخيراً فى موقع نجد الجاح ببلاد رداع ، ومثل به ثم حُمل رأسه إلى صنعاء ، ودفنت جثته فى أقيق ببلاد عنس .

وفى هذا العام ثار الحمدانيون وهم أكبر القبائل التى دانت للصليحيين وفكروا فى خلع طاعتهم ، والخروج على حكمهم ، بالرغم من أن الصليحى كان لايسير فيهم إلا سيرة العدل والحق . فاتصلوا بالشريف القاسم بن جعفر بن الإمام منصور العيانى ، واستنهضوه وأتباعه فاستجاب لطلبهم ، وخرجوا جميعاً سنة ٤٤٨ هـ لغزو الصليحى ، فتقابل الجمعان

بالقرب من قرية الخرابة . ببلاد حاشد . فردهم الصليحى وحاصر الشريف ومن معه بأحد الحصون ، ونصب عليه المنجنيق . لكن أتباع الشريف دافعوا دفاع الأبطال ومات أكثرهم لنفاد المؤونة . وعند ذلك اضطر الشريف إلى أن يسلم نفسه للصليحى فأكرمه وخلع عليه ، ولم تكن سياسة الصفح التى اتبعها الصليحى فى هذه المرة سياسة هوادة أو تردد . بل قصد منها تسكين الثارات ، لأن فى تسكينها الأمن والخير والسعادة والاستقرار لليمن ولليمنيين .

وتمشياً على هذه السياسة القائمة على المهادنة والملاطفة كان الصليحى يلاطف القائد « نجاحاً » صاحب الدولة الحبشية فى زبيد تهامة التى حملت لواء الدعوة الإسلامية السنية فى اليمن بعد دولة بنى زياد ، ولكنه كان يدرك أن دولته الإسماعيلية الفتية لا يمكن أن تكون لها شخصية معنوية قوية وكيان متين ، إلا إذا قضى على أكبر منافسيه وهو « نجاح » وكان الصليحى يلاطفه حتى قوى مركزه ، ودان له معظم الجزيرة اليمنية ثم بدأت العلاقة تتوتر بين الطرفين بفضل مساعى الإمام الزيدى أبى الفتح صاحب صعدة الذى أفسد بين الصليحى وصاحب زبيد فحلت الوحشة بعد الأنس والجفاء بعد حسن الصلة . فأرسل نجاح جيشاً

كثيفاً ، ووافاهم الصليحى بجيشه خلف صعفان فى الجنت المتصل بتهامة ، ودارت بين الطرفين معارك طاحنة ومصادمات عديدة ، وكانت الكرة الأخيرة للصليحى وجيشه من العرب على جمع الأحباش .

ويروى التاريخ أن الأحباش عادوا فاجتمعوا سنة ٤٥٠هـ فى ابن طرف ، وكان معهم جميع أمراء الأحباش ، وكان جيشهم عشرين ألفاً ، فسار إليهم الصليحى فى ألفين وسبعمائة فارس وهنالك التقى الجمعان بالزرائب ، فكانت الدائرة على الأحباش ، ولم يسلم منهم إلا ألف لجأوا إلى جبل يعرف بالعكوتين فوق مدينة الزرائب .

فى تلك الأثناء مات نجاح سنة ٤٥٢ هـ بالكدراء ، ويروى أن الصليحى دبر حيلة لقتله ، حتى تم له ما أراد على يد جارية حسناء كان قد أهداها إليه فيما مضى لتحقيق هذا الغرض ... على أن أكثر المؤرخين يؤكدون أن موت نجاح كان طبيعيًّا . ولكن هذا الموت لم يكن حدًّا فاصلا بين الطرفين . بل على العكس كان بداية لعهد نزاع طويل بين الصليحيين والنجاحيين ، فقد تسلم الزعامة بعد نجاح ولده سعيد ، ولكن الصليحى أظهر براعته العسكرية بتأجيل أمر النجاحيين ، وقرر أن يقضى أولا على فوضى

الدويلات فى داخل اليمن الأسفل . وبعدئذ يتجه إلى عدوه الرئيسى ؛ وكل هذا حتى لا تشغله جبهة أخرى فى داخل البلاد . وفى هذا تتجلى حكمته ورأيه السديد ؛ فزار مسار وصنعاء زيارة قصيرة . ثم قصد بجيوشه اليمن الأسفل واستولى عنوة على جبل صبر . وعلى بلاد بنى الكرندى وملوك المعافر وحصن الدملوة . كما استولى على بلاد الحسين التبعى صاحب حصن حبّ وبُعدان والسحول والشوافى ، ودخل الجَنَد . وهى يومئذ مدينة اليمن الأولى . ولم يكن فى اليمن أشهر منها ومن مدينة صنعاء منذ الجاهلية حتى عهد الصليحى . ثم سار إلى عدن واستولى على بلاد بنى معن الذين كانوا يملكون عدن . ثم هادنهم أخيراً وسلم إليهم بلادهم بعد أن بذلوا له السلم وأعلنوا الخضوع له والائتمار بأمره .

ثم قصد بعد ذلك تهامة . وسار إلى زبيد وافتتحها ، واحتل التهائم كلها . وطرد منها أولاد نجاح الذين فروا إلى جزيرة دهلك فى البحر الأحمر . واستقروا فيها . ويروى التاريخ أنه بعد هذه الفتوحات سار فى الناس بالعفو والصفح ورفع السيف ، وبسط العدل ولاذت به العرب ولا سيما فى بلاد تهامة حيث كان العبيد يتحكمون بهم ويستطيلون عليهم أيام القائد نجاح .

وهكذا طوى الصليحى بلاد اليمن طيًّا وأرضخها جميعها لنفوذه وسلطانه . وافتتح كل ما كان مغلقاً فى وجهه فلم يخرج سنة ٤٥٤ هـ إلا وقد ملك الأقطار اليمنية كافة : قلاعها وحصونها . ومدنها وسهولها وجبالها . وامتد نفوذه من مكة حتى حضرموت . وتمنعت عليه صعدة بعض التمنع . ولكنه ما لبث أن قتل القائم فيها وملكها وبذلك تمت أمور الدولة واستقرت وتوحدت كلمة اليمن .

وجعل الصليحى صنعاء عاصمة لمملكته واتخذها حاضرة لدولته . وبنى فيها عدة قصور . وأسكن معه جميع ملوك وأمراء اليمن تحت علم واحد . ورأت اليمن بعد قرون طويلة وحدة البلاد فى ظل حكم عادل قوى يقوم على الحرية والعدالة والحق . وكل هذا كان من برنامج الملك على الصليحى ؛ فقد أخذ يوطد دعائم ملكه على هذا الأساس ، ويرسى قواعده ، وينظم سياسة البلاد وإدارتها ، ويولى فى المناطق والحصون من يرتضيه ويثق به من الولاة والحكام والقواد ؛ فولى على تهامة « الأمير أسعد بن شهاب الصليحى » ، صنو السيدة الحرة ، أسماء بنت شهاب زوجته — الذى دخل زبيد سنة ٤٥٦ هـ ، وسكن دار شحار ، وأحسن السيرة فى الرعية ، وأذن لأهل السنة فى إظهار مذهبهم ، كما أمرهم بذلك الصليحى ؛

وعامل أرباب الدولة النجاحية بالحسنى .

وكان الصليحى قد أقسم ألا يولى التهائم إلا من يزن له مائة ألف دينار . ثم ندم على ذلك حين أراد أن يوليها أسعد بن شهاب . وهنا وزنت له زوجته الملكة أسماء عن أخيها . فقال لها زوجها : يا مولاتنا ! من أين لك هذا ؟ قالت : « هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ، فتبسم وعرف أنه من خزائنه . فقبض وقال : هذه بضاعتنا ردت إلينا ، فقالت له : « ونميرُ أهلنا ونحفظ أخانا » .

وعين الصليحى أيضاً ابنه الأمير المكرم أحمد على الجند وما يليها ، واستعمل أخاه عبد الله على بلدة ذى جبلة ، فابتدأ يصلحها ويعمرها ويمدنها ، ولم يكن اهتمام الصليحى مقصوراً على اليمن فحسب ، بل كان ينظر إلى ما وراء حدود بلاده ، وبالأخص إلى بلاد الحجاز والأراضى المقدسة فيها . وهى أقرب البلدان إلى اليمن . وأهمها فى نظر المسلمين ، وأحوجها إلى استقرار الحكم وحسن الإدارة . فوجه اهتمامه إليها ، وكان إخلاصه للخلافة الفاطمية وللتعاليم الإسماعيلية ، وتفانيه فى سبيل رضا الإمام المستنصر بالله ، يحتمان عليه أن يجيب أوامره طائعاً ، ويؤديها متبركاً برضاه ، معتزاً

بثقته به ، فلما خرجت مكة عن طاعة المستنصر بالله ، وقطعت الخطبة له من سنة ٤٥٣ هـ . أرسل الصليحى إلى واليها « شكر الحسينى » يحذره مغبة خروجه عليه وتبودلت بين الطرفين مراسلات تنطوى على الكثير من التهديد والوعيد . ولما عيل صبر الصليحى وضاق صدره طلب من الإمام الفاطمى المستنصر بالله أن يأذن له بإزالة الشريف شكر عن مكة ليكون أمرها إليه ، فأجابه المستنصر بكتاب ينهاه عن سفك الدماء بالحرم الشريف قائلا : « إياك أن تلقى الله بدماء بنى فاطمة » ، فاعتمد الصليحى أمر إمامه ، وصبر مكرهاً على ما كان يجرى فى البلاد المقدسة .

ثم توجه إلى مكة أخيراً سنة ٤٥٤ هـ ، وقضى فريضة الحج ومعه أمراء اليمن وزعماؤها ، فانتزعها من بنى أبى الطيب ، وذلك أن شكراً ، لما توفى وخلفه ابن جعفر رئيس الهواشم وزوج ابنة شكر ، أوقع بالسليمانيين الحزيمة ، وأخرجهم من بلاد الحجاز ، واستقل بإمارة مكة ، وأقام الخطبة للخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله ، ولكنه لم يعمل على الاحتفاظ بسيادة الفاطميين على مكة ، لأنه ما لبث أن انحرف عنهم ، وأمر بذكر اسم الخليفة العباسى القائم .

ولما انتهى الصليحى من فريضة الحج أخرج من الأموال

والصدقات للبيت والحرم والمناسك ما يفوق حد التصور ، وعامل الناس بالحسنى . وأظهر العدل والإحسان . وعمل على استمالة الناس إلى جانبه بما امتلك من الأموال ، فطابت قلوبهم . ورخصت الأسعار وأمنت الحجاج أمناً لم يعرف مثله من قبل حتى إنهم كانوا يعتمرون ليلا ونهاراً وأموالهم محفوظة ورحالهم محروسة . ولم تقف أعماله هنالك عند هذا الحد . بل إنه شن حملة تأديب على القبائل الثائرة التى كانت تعتدى على الحجاج ورد بنى شيبة عن قبيح أعمالهم وأفعالهم مع الحجاج ، ورد إلى البيت من الحلى والأثاث ما كان بنو الطيب الحسينيون قد أخذوه عندما تملكوا بعد شكر ، وكانوا قد عروا البيت والميزاب . ثم أخذ يصلح ما أفسده الأشراف فى هذه البلاد ، وتحمل ديات القتلى من ماله الخاص . فكسب بحسن سياسته وإدارته رضا إمامه المستنصر بالله ، وثقة كثير من البلدان الإسلامية المجاورة لما قدمه من خدمات للحجاج عامة ، وما قام به من كسوة الكعبة بالديباج الأبيض ، وما جلبه من الأقوات إلى أهالى تلك البلاد ، فلهجت الألسن بالدعاء له فى كل مكان والثناء على كرمه وأفعاله .

ومن الجدير بالذكر أن الصليحى أقام فى الأراضى المقدسة حتى يوم عاشوراء سنة ٤٥٥ هـ يخطب للخليفة

المستنصر بالله . ويعيب على العباسيين إهمالهم شؤون الدين ؛ وفى أثناء إقامته بمكة راسله الأشراف الحسينيون المغلوبون على أمرهم ، وطلبوا منه أن يختار من بينهم والياً عليهم ، وبذلوا له الطاعة . فأقام على البلدة واليها السابق محمد بن جعفر ، وأعطاه مالا وسلاحاً . وأصلح بين العساكر ، ودل بهذا على حسن سياسته لأنه لم يتعنت مع الحسينيين ، ولم يظلمهم ، وآثر أن يحسن معاملتهم ليكسب ودهم ، وخاف أن يترك البلدة قبل أن تستقر الأمور فيها . فتقع فى أيديهم ، ويستمرون فى عنادهم وخلافاتهم ، فاستعمل معهم اللين ، وبذلك نجح فى تحقيق سياسته مؤقتاً ، وقفل بعد ذلك عائداً إلى صنعاء .

ومهما يكن من أمر فإن الشريف محمد بن جعفر أمير مكة لم يعمل طوال عهده الذى بدأ من سنة ٤٥٣ــ٤٨٧ هـ على تنظيم الأمور فى الأراضى المقدسة . وإقرار الأمن بها بالرغم من المساعدات المالية التى كانت ترد إليه من الخليفة العباسى أحياناً ، ومن الخليفة الفاطمى أحياناً أخرى ، بل أساء التصرف والسيرة فيها ، وأصبح الحجاج فى أواخر أيامه لا يأمنون على أنفسهم ، كذلك لم يبد من هذا الشريف ما يشعر برغبته فى الاستقلال عن الخلافة العباسية أو الفاطمية ، بل دان لكل منهما بالطاعة فى فترات متقاربة حتى وصفه

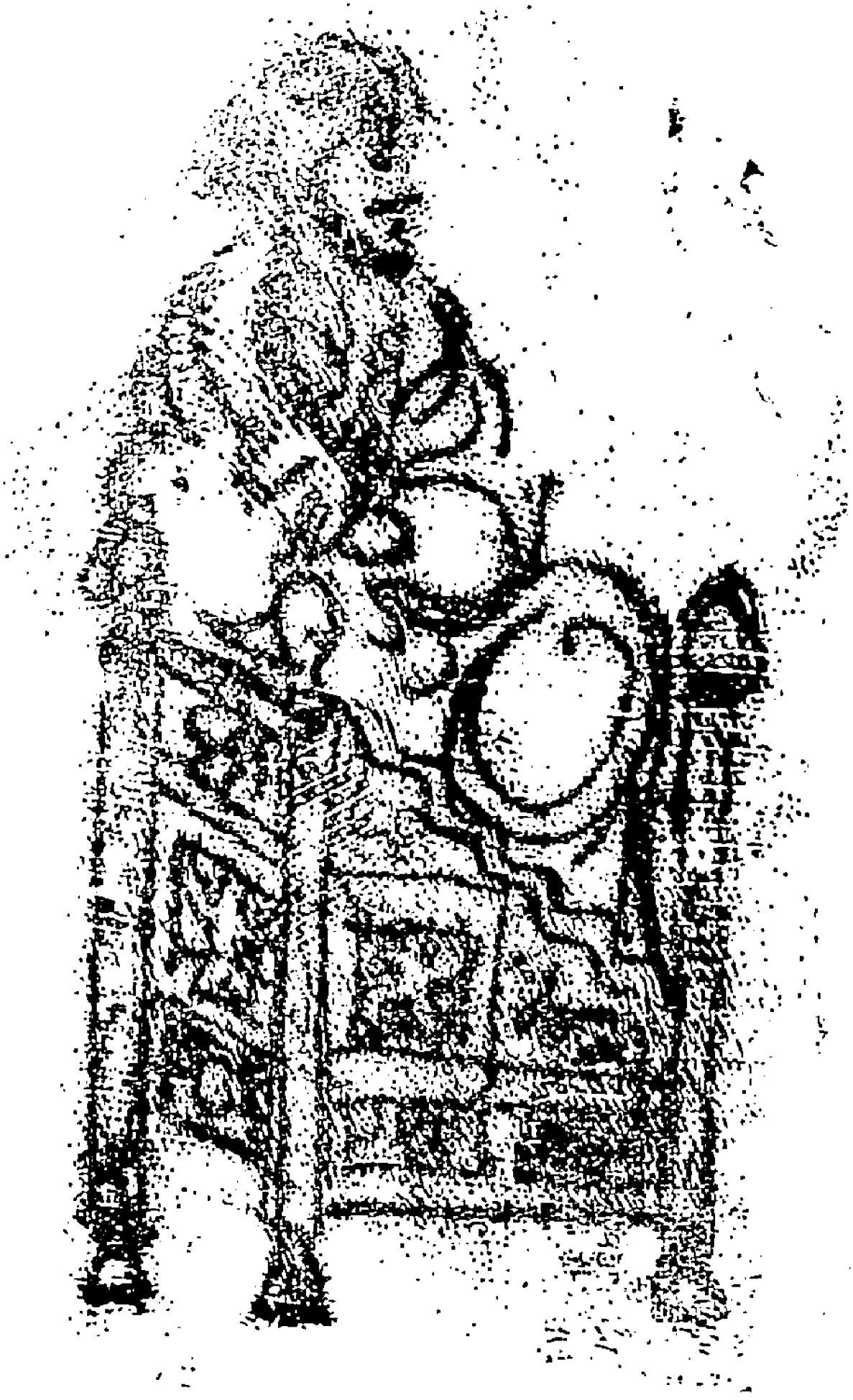

أبو المحاسن فى كتابه « النجوم الزاهرة » : بأنه كان متلوناً تارة مع الخلفاء العباسيين العراقيين وتارة مع الفاطميين المصريين . ويظهر من هذا أنه كان يلعب بمصالح البلاد المقدسة ومصالح المسلمين جرياً وراء المال ، وهناك من يقول : إن هذا التلون يعزد إلى دوافع سياسية وأخرى اقتصادية .

هذا ... ومن الجدير بالذكر أنه بعد عودة الصليحى إلى صنعاء شكر له الخليفة الفاطمى المستنصر بالله حسن صنيعه وامتثاله لأوامره بعدم إراقة الدماء فى الأراضى المقدسة ، ولكن الشريف محمد بن جعفر رجع إلى ما كان يفكر فيه ، وخرج على من أحسن إليه ، فهاجم مدينة الحلى ، واستولى على ما بها من متاع للصليحى ، ولم يكتف بذلك بل عمل على إثارة الفتن وتهييج العامة .

وفى أثناء غيابه عن اليمن أيضاً قامت الفتن والثورات فى بعض أنحاء المملكة ، فثار عليه قوم من عَنَس وزُبيد وأظهروا الخلاف والعصيان ، والتفوا حول رجل منهم ، ثم التجأوا إلى جبل مَسْوَة وما جاوره فى الجبال ، وعندما عظم فسادهم قصدهم الصليحى واقتحم معاقلهم عنوة حتى دانوا له بالطاعة .

وأخيراً وبعد كل هذا عاد الملك على الصليحى للتفكير فى شؤونه الخاصة وأمور الملك ، ومنها ولاية العهد خاصة ،

وكان ولده الأكبر الأمير محمد قد بلغ مبلغ الرجال ، فرغب فى أن يوليه ولاية العهد لينوب عنه فى الملك فى حياته وبعد مماته ، فكتب إلى الإمام المستنصر بالله سنة ٤٥٦ هـ يخبره بما استقر عليه رأيه ، فورد إليه سجل الإمام بالموافقة على هذا داعياً للأمير بالتوفيق . ولقبه الأمير الأعز شمس المعالى . وأذن له الإمام أن يذكر هذا اللقب على منابر البلاد اليمنية . وكان وصول السجل المستنصر من مصر سنة ٤٥٦ هـ ، وفى ذلك الوقت توفى الأمير أسعد بن شهاب حاكم زُبيد وأعمالها . فرأى الصليحى أن يولى ابنه الأمير محمد على ما كان لخاله أسعد ، وأراد أن يتركه حر التصرف فى إدارة شؤونها لكى يختبره ويدربه على الحكم .

وهذا هو سجل الإمام المستنصر بالله بهذا الشأن :

«ومما نظر إليك أمير المؤمنين نظر مثله ، ممن ينظرون بنور الله لمثلك ، ممن بإخلاص ولائه يستظهر ، أن يتخذ ولدك منتجب الدولة وصفوتها ذا المجدين خليفة لك ، يخلفك فى حياتك ، ويكون خلفاً صالحاً عند حضور وفاتك ، وأن يصطنعه لنفسه ويلبسه من لباس الأكرومة ما يرتقى إلى ذروة الشرف بلبسه ، ويفيض عليه من خاص الملابس ما يفيض عليه الأقدار بإذن الله سعودها ، وتنجز له أقاصى الأمانى

وعودها ، ويسميه بالأمير الأعز شمس المعالى مضافاً إلى قديم ألقابه ، ويأذن أن يدعو فى تراجم كتبه ويدعى به ويفسح أن يذكر به على فرق منابر بلادك فى أعجاز ذكرك وأعقابه ، وأن يلقب أخويه بلقبين زائدين فى ألقابهما المتقدمة لينالا بهما مزيداً فى الاصطناع والكرامة . فالأوسط منهما الأمير المكرم ، والأصغر الأمير الموفق ، والله تعالى يسدد كلا منهما ويرفق » .

وصل الأمير محمد إلى زُبيد فى شهر شعبان من سنة ٤٥٧ هـ . وبعد خمسة أشهر من حكم تهامة سار والده الملك على الصليحى بصحبة الملكة السيدة الحرة أسماء بنت شهاب وولدهما الموفق فى شهر محرم سنة ٤٥٨ هـ إلى زُبيد ، وأقاموا فى ضيافة ولدهم الأعز مدة قصيرة ثم عزموا بعدها على العودة إلى صنعاء فصحبهم الأمير الأعز مودعاً ، وكان يريد أن يبلغ معهم الغمد ، ولكن لما صار بالمصقع أصابته الحمى فأمره والده بالرجوع إلى زُبيد ، فرجع إليها ودخلها ليلة الثلاثاء لعشرين ليلة خلت من محرم ، وقد ازداد عليه المرض فلم يمهله ، فتوفى فى الثانى والعشرين من محرم سنة ٤٥٨ هـ ، وعمره سبع وعشرون سنة ، ولما وصل خبر موته إلى والده ، وهو على وشك الطلوع إلى حصن مسار مع الملكة أسماء ، اشتد عليهما الحزن ، وقفل الملك علىّ عائداً

إلى زُبيد بجميع من معه ، فوصل إليها ليلة الاثنين ولم يكن ابنه الأعز قد دفن فشيع جنازته يوم وصوله ودفنه بقرب ضريح خاله الأمير أسعد بن شهاب .

وبعد أن أقام الملك على الصليحى العزاء على ابنه الأعز الأمير محمد سبعة أيام ، عاد فتجدد هذا مرة أخرى على وفاة ابنته ميمونة التى ماتت غمًّا على أخيها . وقبل أن تصل رسل الملك الصليحى إلى الإمام المستنصر بالله كان قد علم بوفاة الأمير الأعز فأرسل إليه سجلاً يعزيه برفاة ولى عهده ، وآخر يعين بموجبه الأمير المكرم وليًّا للعهد .

ولم يكتف الملك على الصليحى بما وصله من الإمام المستنصر من عطف وشعور ، بل أوفد إليه إلى القاهرة وفداً مكوناً من القاضى عمران بن الفضل ونجيب بن عفير ويوسف بن محمد وعنتر بن غشم يطلب منه السماح بالمثول بين يديه ، فردّ عليه المستنصر بأنه يشفق عليه لبعد المسافة ومشقة الطريق ، ولعل السبب الرئيسى فى عدم موافقة المقام الإمامى على ذهاب الصليحى إلى مصر يرجع إلى حالتها العامة فى ذلك الوقت ، إذ أنها كانت تحت الشدة العظمى التى استمرت من سنة ٤٥٩ — ٤٦٦ هـ . وهى المدة التى تعرضت خلالها للسلب والنهب والخراب ، بسبب اختلال

الأمن وانتشار الفوضى ، وهذا ما حفز الإمام المستنصر بالله على تكليف بدر الجمالى بالوزارة . وهنا بدأ عهد جديد بالتغلب على المصاعب وإعادة الأمن والثقة والاستقرار .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الملك على الصليحى لما استقر به الحال ، وكان قد أوحى لولده الثانى أحمد المكرم بولاية العهد والقيام بالعدل وحسن السيرة وسياسة الرعية ، غادر صنعاء إلى الديار المقدسة مرة ثانية لأداء فريضة الحج ، وكان قد أرسل قبل سفره خمسين أميراً من أمراء اليمن المغلوبين على أمرهم ومائة وسبعين من آل الصليحى وغيرهم ممن أرادوا أداء فريضة الحج من قبائل يام وجنب وسخان وأهل حراز ، وقد رمى من سيرهم أمامه عدم ازدحام الطريق بهم ، ثم سار هو فى ألفى فارس وبين يديه خمسمائة فرس مطهمة بالسروج ومحلاة بالذهب والفضة وخمسون هجيناً ، وغير ذلك من أدوات الزينة والآلات مما لا يكن إدخاله تحت الحصر .

وكان قيامه من صنعاء فى يوم الاثنين السادس من ذى القعدة سنة ٤٥٩ هـ ، وفى هذه الأثناء كانت نار الحقد وحب الانتقام تلتهم قلوب بنى نجاح بزعامة سعيد الأحول ، فكانوا يتربصون الفرص للإيقاع بالصليحى ، والعمل على تقويض أركان دولته التى كانت سبباً فى زوال ملكهم وملك

بعض أمراء اليمن الآخرين ؛ فكان يشجعهم على الاستمرار بطلب حقوقهم ؛ ويقوى عزمهم على الأخذ بثأر نجاح ، ما لمسوه من مساندة بعض القبائل لهم ؛ وإعلانهم عن استعدادهم للسير معهم فى حروبهم . فلما وصل الخبر إلى الصليحى استقدم أحد متقدميهم فرحاً البيشى ؛ وهو من العبيد الأحباش عند نجاح ، فذكر له إحسانه إليه وتقديمه ورفع مكانته ، فأنكر فرح ما نسب إليه وحلف الأيمان المغلظة بأنه لا يعلم شيئاً عن الأمر ، وقرر استعداده للذهاب وإحضار رأس سعيد الأحول إلى الصليحى ؛ ولكن الأمر كان على العكس ، فإن فرحاً لما ذهب إلى زبيد أخذ يحرض العبيد والأحباش ويوغر صدورهم ؛ وبلغ ذلك الصليحى فأمر بإلقاء القبض عليه وقتله ؛ فكان من أثر ذلك أن شقّ الأحباش عصا الطاعة على ولاة الصليحيين بزُبيد حيث وثبوا على أبى السعود ، وأحمد بن أسعد بن شهاب الصليحى فقتلوهما ، وقتلوا كل من كان معهما من أهل حراز ، ثم نهبوا ما معهم من أموال ومتاع .

ولم يكتفوا بذلك بل عزموا على محاربة الملك الصليحى نفسه ، فاستدعوا من كان على رأيهم من العبيد والأحباش بتهامة والحجاز لحرب الصليحيين ، وجندوا جنودهم ،

وعبأوا صفوفهم ، ثم إنهم علموا من عيونهم التى بثوها أن الصليحى ليس معه أحد من أهل البأس والحرب والمراس ، لأن رجاله كانوا قد تقدموه إلى الديار المقدسة كما ذكرنا وأن جميع أمواله وأثقاله مبثوثة فيما بين هجر والمهجم ، وهذه البلاد قد تمهد مهادها واستقام عمادها وأمنت السبل وخضع كل عزيز وذل ، ولم يكن مع الصليحى فى المهجم إلا ابنه المرفق وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب وأخواه عبد الله وإبراهيم وجماعة من بنى الصليحى ، فلما علم بأن الأحباش قد عبأوا قواتهم وأنهم فى طريقهم لقتاله ، أنفذ عبيده الذين كانوا معه لمقاتلة العدو ؛ وقد عهد إليهم بهذا الأمر لوثوقه بأنه ولى نعمتهم وله عليهم فضل وإحسان ؛ وأنهم يفدونه بالمهج والأرواح . فهبوا مسرعين متظاهرين بالحماسة ، ولكنهم أضمروا الخيانة والغدر ، لأنهم حين التقوا فى الطريق ببنى جلدتهم قرروا الغدر بسيدهم وولى نعمتهم ، وحرضوا العبيد والأحباش عليه ، ودلوهم على موضعه ، وقالوا لهم : إن فاتكم غداً لحق بأصحابه وعسكره ، وامتنع عليكم . فأصغوا إلى نصيحتهم ، وقويت نفوسهم ، وصحت عزائمهم ، وساروا إليه مجدين حتى فاجأوه بقرية يقال لها « أم الدهيم » فانقضوا عليه فى اليوم الحادى عشر

من ذى القعدة سنة ٤٥٩ هـ ، ومعه بنو عمه الذين أبلوا بلاء شديداً فى الدفاع . وكان أخوه عبد الله أشدهم يومئذ إقداماً وأعظمهم بطشاً بالأعداء .

فى هذه المعركة قتل الصليحى وأخواه عبد الله وإبراهيم وبعض أقاربه . أما الأمير الموفق ابن الملك على الصليحى الأصغر . ومهنا بن على المظفر الصليحى ، فقد اتجها إلى مكان السيدات لحمايتهن ، ولكن العبيد ما لبثوا أن حاصروا هذا المكان ، واستمر حصارهم حتى اليوم الخامس عشر من ذى القعدة ، حيث استأمن مهنا وخرج إلى الأحول فأخذ منه ميثاقاً شديداً على الحرائر الصليحيات وعلى من بقى من بنى الصليحى وسواهم وحلف له أغلظ الأيمان بأنه سيطلق سراحهن ليسرن إلى صنعاء ، فوثق بقوله ، ونقل السيدات إلى دار أخرى ، ولكن الأحول غدر بالرجال فقتلهم عن آخرهم ، ونهب كل ما كان فى الدار من أموال جليلة القدر وسائر ما يدخره الملوك ، وكان الصليحى قد أعدها لينفقها على الجيش والحجاج والمسلمين وعلى البيت الحرام . ويروى التاريخ أنهم غنموا ألف فرس وثلاثة آلاف جمل بعددها وعدتها .

هنا سألت الملكة السيدة الحرة أسماء بنت شهاب سعيداً

الأحول أن يسمح لها ومن معها من النساء بالعودة إلى صنعاء، فامتنع . وساربهن إلى زبيد ومعه رأسا الملك على الصليحى وأخيه عبد الله محمولين على رمحين أمام هودج الملكة أسماء ، وقد نُصب الرمحان أمام الشباك الذى تنظر منه الملكة الحرة أسماء فى الدار التى حلّت بها . إلا أن سعيداً بذل ما استطاع من الجهد فى سبيل المحافظة وصيانة السيدات الصليحيات .

يتبين من مجريات الأمور ومن الحوادث التاريخية التى تدور حول هذ الموضوع أن الصليحى لم يكن يبغى الحج لذاته ، بل كان له برنامج إصلاحى حافل بالأعمال والخيرات أراد تطبيقه بحزم وجد ، وبعضه يتعلق بالمساعى الخيرية لتسهيل الحج وعمارة الآثار وحفظ المؤن وإجراء الأنهار ، والبعض الآخر يتعلق بالاستعداد لزيارة إمامه المستنصر بالله الفاطمى ، ولكنه ما لبث أن ذهب ضحية خيانة عبيده وتهاونه باتخاذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة العدو ، وجهل عماله بما يجرى فى المناطق والأقاليم من استعدادات وتأهبات .

هذا وقد اختلف المؤرخون فى تحديد السنة التى قتل فيها الصليحى ، كما اختلفوا من قبل فى السنة التى تولى فيها ، فقال البعض : إن قتله كان فى سنة ٤٧٣ هـ وقال البعض الآخر : إن ذلك حدث فى سنة ٤٥٩ هـ ، والصواب هو التاريخ

الأخير. كما ورد فى الوثائق المعاصرة؛ وهى السجلات المستنصرية.

ولابد من القول. ونحن فى طريقنا لإسدال ستار على تاريخ هذا الرجل العظيم الذى استطاع تأسيس دولة كبرى فى اليمن؛ إن عهده يعدّ بالنسبة لتاريخ اليمن من العهود الزاهرة، وإنه من الرجال الذين قل أن يجود الدهر بمثلهم، وذلك لأن البلاد اليمنية لم تجتمع لملك واحد، بل كان الرئيس منهم يملك إقليما صغيراً أو حصناً، ثم يأتى من هو أقوى منه فينتزعه، وكانت البلاد تعانى فوضى الإمارات الصغيرة المتنابذة. وذلك يخالف ما عمل وخطط له الصليحى، فقد تمكن من جمع اليمن كله تحت لواء واحد، ويرى عُمارة: أن هذا أمر لم يعهد فى جاهلية ولا فى إسلام، وبيّن ذلك العرشى بكتابه «بلوغ المرام» بقوله: «ولم يقع لأحد فيمن ملك اليمن ما وقع لعلى بن محمد الصليحى، فإنه استولى على اليمن سهله وجبله وشماله وجنوبه وشرقه فى مدة يسيرة، بعد أن قهر أعداءه؛ فهو لذلك لا يقل فى نظرنا عن بعض القواد الفاتحين الذين لمع اسمهم على صفحات التاريخ بما أحرزوه من انتصارات، وما قاموا به من فتوحات وأعمال مجيدة، وإن يلك ذلك لمدة وجيزة».

ومن هنا نرى أنه حكم البلاد حكماً مطلقاً. كما كان

فى العصور الوسطى . ولكنه كان حكماً مستنيراً عادلا قائماً على أسس حكيمة يتجلى فيها السمو والرفعة . فكانت أمور الدولة والدعوة الإسماعيلية مركزة فى شخصه تقيده بالمثل التى قررها لنفسه من إقامة الحق وإقرار العدل . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإنه من الناحية الدينية ظهر على صفحات تاريخ اليمن داعياً إسماعيلياً متمسكاً بأهداب الدين حريصاً على تعاليم الإسلام غير مكره أحداً على الدخول فى عقيدته ، ولكنه لم يكن يرفض لأحد أن يتهاون بفرائض الدين ، ومع ذلك اتهم كما اتهم من قبله الأئمة الفاطميون بالكفر والخروج على الدين الإسلامى . والغريب أنهم اتهموه بالإباحية وتعطيل الشرائع ، وهو الذى كان يحج إلى مكة ويعمر طرقاتها ويؤمن للناس القيام بفرائضهم ، وهذا هو المؤرخ الفاسى يقول فى كتابه « تحفة الكرام » : « فطابت قلوب الناس ، ورخصت الأسعار ، وأمنت الحجاج أمناً لم يعرف له مثيل من قبل ، حتى إنهم كانوا يعتمرون ليلاً ونهاراً ، وأموالهم محفوظة ورحالهم محروسة » . ويقول ابن الجوزى فى مرآة الزمان : « فرد بنى شيبة عن قبيح أعمالهم وأفعالهم مع الحجاج ورد إلى البيت من الحلى ما كان بنو الطيب الأشراف قد سلبوه ، كما ملكوا الديار المقدسة بعد شكر الحسينى وكانوا

قد عروا البيت والميزاب » .

ومهما يكن من أمر فإن ما قام به الملك على الصليحى فى الأراضى المقدسة أكسبه ثقة الكثيرين من البلدان الإسلامية . فإن ما جلبه إليها من الأقوات جعل الألسن تلهج بالدعاء له فى كل مكان . والحقيقة أننا نستبعد أن يكون كلام المغرضين صحيحاً ، لأن تاريخ الصليحيين لا يدلنا على شىء مما ذكروا ، والصليحيون الإسماعيليون كانوا يتخذون من الدين الإسلامى الحنيف ، ومن ولائهم لأئمتهم الفاطميين بمصر ، وسيلة لنشر نفوذهم ، وتوطيد حكمهم فى البلاد التى أخضعوا لسلطانهم ، كما كان دأب الحكومات والملوك فى العالم الإسلامى فى ذلك العهد فى تعلقهم وانتسابهم لخلافة بنى العباس ، وكيف ننكر ما قاله الصليحى نفسه لأهل حراز : « فلم أطلع مسار متجبراً باغياً ولا متكبراً على البلاد عاتياً ، وإنما قيامى بالحق الذى أمر الله عز وجل به والعدل الذى أنزل فى محكم كتابه »....

وكان الصليحى أيضاً يتسامح مع علماء السنة متخذاً خطة التسامح الفاطمية . لأن الفاطميين كانوا يتسامحون أيضاً ، حتى إنهم سمحوا لبعض فقهائهم بإقامة شعائرهم ونشر تعاليمهم فى المساجد ، ولقد روى التاريخ أنه فى سنة ٣٨٣ هـ

وثب رجل جعفرى للجلوس فى الجامع الأزهر للفتوى على مذهب أهل البيت : فشغب عليه الفقهاء ، من أهل الجامع فبلغ القاضى ذلك ، فقبض على بعضهم . وهذا النص يدل على أنه كان بالأزهر فى عهد الفاطميين فقهاء يخالفون المذهب الفاطمى ويفتون وفق تعاليم مذاهبهم ، فلما جاء هذا الفقيه للفتيا على المذهب الإمامى شغبوا عليه ، فاضطر القاضى إلى إصدار الأمر بالقبض على بعضهم لا لشىء إلا لأنهم لم يتسامحوا مع هذا الفقيه كما تسامحت الدولة معهم .

وكذلك فعل أسعد بن شهاب الصليحى لما دخل زُبيد سنة ٤٥٦ هوالياً عليها من قبل الصليحى ، فأحسن السيرة فى الرعية وأذن لأهل السنة بإظهار مذهبهم . وقد ساعدت هذه السياسة الدينية الصليحية إلى حد ما على حفظ الأمن فى البلاد الخاضعة لها ، مع وجود المعارضة القوية لمذهبها الرسمى ، فانصرف الناس إلى أمور معايشهم مطمئنين ، وتحير المنافسون فى مقاومة هذه الدولة المتطورة العادلة المتفهمة التى لا تمكن مقاومتها ، بعد أن رأوا من حسن سياسة الملك الصليحى وتشدده مع الخارجين على الدين الحنيف ، ورفعه لأهل العلم والفضل مهما تكن نحلتهم ، وتسامحه مع أهل المذاهب الإسلامية الأخرى ؛ فلم ينكر على أحد مذهباً من مذاهب فرق

الإسلام على تشعبها ؛ بل أقر كل امرئ على ما كان عليه.

ومما يجدر ذكره أن الملك على الصليحى عرف أن الشعر العربى يجب أن يكون السلاح الماضى فى خدمة الدولة وأنه من أهم وسائل الدعاية لها ؛ فلم يشأ أن يترك هذا السلاح دون أن يشهره على خصومه أو يستخدمه فى الدفاع عن دولته والمباهاة بفضائلها والإشادة بذكرها . فلا عجب بعد هذا إذا ما رأيناه يجزل العطاء للشعراء ؛ كما كان يفعل الخلفاء العباسيون والفاطميون ؛ ومن أشهر الشعراء الذين قرضوا الشعر فى عهده « عمرو بن يحيى الهيثمى ، والحسين بن على القمى ، والحسن بن أبى عُقامة » .

وكان الصليحى نفسه ممن يتذوقون الشعر فصيحاً بليغاً . وقد روى عنه بعض الأبيات قالها فى مناسبات شتى ، فمنها :

أنكحت بعض الهند سمر رماحهم ... فرؤوسهم عرض النثار نثار
وكذا العلا لا يستباح نكاحها ... إلا بحيث تطلق الأعمار

ويروى أيضاً أن على الصليحى قال عند احتلاله حصن وراخ المشهور :

ما اعتذارى وقد ملكت وراخا ... عن قراع العدا وقود الرعال

وكانت له نفس طموح . ويقول :

وألذ من قرع المثانى عنده ... فى الحرب ألجم ياغلام وأسرج

خيل بأقصى حضرموت مجالُها وصهيلها بين العراق ومنبج

وكان الصليحى فرق ذلك عالماً وفقيهاً مستبصراً فى علم التأويل . كما كان خطيباً مفوهاً ، وقد وقفت على بعض خطبه التى ألقاها فى أهل حراز وأنصار الدعوة ، وهى تبين مقدار بلاغته وقدرته . ولا يبعد أن تكون الخطابة قد بلغت مركزاً مرموقاً فى عهد هذه الدولة العربية المتحضرة .

وفى الختام لابد من القول : إن علياً الصليحى وإن يكن مجهولا بالنسبة للتاريخ العربى واليمنى ، فهو مؤسس مملكة ومقيم تعاليم ، وموجد دولة كبرى ساهمت كثيراً فى بناء الحرية والأمن والعدالة .